# لمحات من الحياة العامة في الأحساء
# من خلال رحلة طبيب ألماني في منتصف القرن العشرين(*)

**د/ دايل بن على الخالدى**

**استاذ مشارك ورئيس قسم الدراسات الاجتماعية**

**كلية الآداب ٠ جامعة الملك فيصل**

## الملخص

يتناول هذا البحث الرحلة التي قام بها هربرت بريتسكِه (Herbert Pritzke)، – أو سلامة سليمان كما أطلق عليه البدو في مصر أو الحكيم الألماني كما كان أهل الأحساء ينادونه – يتناول رحلته إلى الأحساء بعد دعوة من حكومة المملكة العربية السعودية ليتولى إدارة مستشفى تابعة لمكتب الصحة في الهفوف. وعلى الأرجح فقد كانت هذه الدعوة في صيف ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

بقي الحكيم الألماني في الهفوف حوالي ثلاثة أعوام، رصد خلالها كثيرا من ملامح الحياة في المنطقة، وخصوصا الجوانب الإنسانية منها، وتحدث عن القضاء والعدالة السعودية كما رآها، ولم تخلُ حياته في الهفوف من المغامرات والمخاطر، ولكنها لم تكن مغامرات الأسير الهارب من السلطات، بل الحكيم الألماني الذي تستعين به السلطة في الحفاظ على أسس الدولة، بل وعاصر بعض الأزمات السياسية في المنطقة، كأزمة البريمي التي عاش جزءا من أحداثها الفعلية.

لقد جاء هذا الرجل إلى الأحساء دون مكانة ما، ولكنه حاز إعجاب الأمير والناس لتفانيه في عمله، وطيبته الفطرية التي جعلته يعمل على تحرير فتاة سورية بائسة من أسر العبودية، ويعيدها إلى وطنها لتتزوج وتنجب ثلاثة من الأبناء.

وقد تميز هربرت بريتسكه بالدقة الشديدة، إلى جانب مميزات علمية وثقافية واسعة، وقوة في الملاحظة وقدرة على الكتابة، مما انعكس على القيمة العلمية والتاريخية لرحلته.

**الكلمات المفتاحية:** هربرت بريتسكِه، الاحساء، الهفوف، عصر الملك عبد العزيز، الحكيم الألماني

---

(*)**مجلة المؤرخ المصرى، عدد يوليو ٢٠٢٣، العدد الثالث والستون.**

**Abstract :**

This paper examined the adventures of Herbert Pritzke - or Salama Suleiman as he was called by the Bedouins in Egypt or the German sage as the people of Al-Ahsa used to call him - specifically his trip to Al-Ahsa upon invitation by the Saudi government to take the administrative responsibility of a hospital under the control of health office in Hofuf. Most likely, this invitation was in the summer of 1368 AH / 1949 CE.

The German doctor resided in Hofuf for about three years, during which he observed many features of life in the region, especially the humanitarian aspects thereof, and he talked about the Saudi judiciary and justice system as he observed them. His life was not free of adventures and risks, but this time, it was not of a fugitive prisoner of war, but rather a German wise man, who was employed by the authority to preserve the foundations of the state. He even experienced some political crises in the region, such as the Buraimi crisis, in which he was an eyewitness of the actual events thereof.

This man came to Al-Ahsa without any prestige, but he won the admiration of the Emir and the people for his dedication to his work, and his innate kindness that made him work to liberate a miserable Syrian girl from the captivity of slavery and return her to her homeland to marry and have three children.

Herbert Pritzke was meticulous and characterized by wide scientific and cultural advantages, such as strength in observation and ability to write, which was reflected clearly in the highly scientific and historical value of his trip.

**Key words**: Al-Ahsa, Hofuf, Herbert Pritzke. The German Hakim

**التعريف بالرحالة:**

الرحالة هربرت بريتسكه طبيب ألماني، ولد في برلين حوالي عام ١٩٢٠م، كان متزوجا وله ابن يدعى (ڤولف ديتريش – *Wolf Dietrich*) ولد في عام ١٩٤٢ ".[١]

عمل طبيبا في الجيش الألماني، حيث التحق بقطعة عسكرية عاملة في

إيطاليا بأواخر الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٤م، ثم انتقل إلى الفرقة الألمانية العاملة بمصر "*Afrika Korps*".[٢]

ومن المرجح أن بريتسكِه انتقل من إيطاليا إلى مصر إبان هزيمة القوات الألمانية في كل من البلدين، ولم يكن وجوده في مصر إلا كأسير حرب في السجن العسكري التابع للجيش البريطاني في محافظة الإسماعيلية[٣] بمصر.[٤]

تمكن هربرت بريتسكه من الهروب من معسكر الاعتقال البريطاني بالإسماعيلية، الذي كان خاصا بأسرى الحرب الألمان الذين كانوا ضمن القوات الألمانية داخل الحدود المصرية. ونجح في اجتياز الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر أثناء الليل.[٥]

ولا يحتاج الأمر كثير عناء لإدراك المعاناة في صحراء جرداء أثناء الليل لهارب لم يصطحب معه إلا الخوف من ملاحقة الدوريات له، ولكنه اكتشف في غضون ساعات أن هناك أخطارا أكبر بكثير مما كان يتصوره. فقد عانى من العطش والجوع والتعب، معاناة لم يتصورها حتى سقط مغشيا عليه، ولم ينقذه إلا صبي بدوي كان يرعى غنمه، فسقاه واصطحبه معه إلى المخيم حيث قدموا له واجب الضيافة، وأخذ قسطا من الراحة ليتوجه بعدها إلى مخيم بدوي أكبر حجما.

وهناك نصحوه بتغيير هيئته والبقاء معهم، خصوصا وأنه كان بلا أوراق تثبت هويته، فوافق مرغما وحمل اسما جديدا هو سلامة سليمان. ولكن حياته مع البدو لم تخلُ من الشقاء، بل كانت سلسلة من المغامرات المميتة المفروضة عليه، والتي نجا منها بأعجوبة.[٦]

وبعد فترة أيقن بريتسكِه أنه لن يستطيع أن يجد مخرجا للعودة إلى وطنه وهو مقيم مع البدو في هذه الصحراء، فقرر الذهاب إلى القاهرة طمعا في الحصول على الأوراق اللازمة لعودته إلى وطنه.[٧]

ورغم تشبث البدو به إلا أنه صمم على الرحيل للقاهرة التي تعرض فيها للعديد من المصاعب، وفيها طلب منه أن ينضم إلى زملائه الألمان في يافا الفلسطينية، لمشاركة القوات العربية في محاربة العصابات الصهيونية بعد

صدور قرار من الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، ولم يجد الطبيب مفرا من القبول نظرا للضياع الذي أصبح فيه، وأملا في إيجاد مخرج لعودته إلى وطنه عبر الحدود الفلسطينية، وفعلا انتهى الأمر به كمسؤول طبي عن جبهة القتال في يافا.

ومع تطورات الحرب في فلسطين انتهى به الأمر إلى بيروت ليكمل مهمته مع القوات العربية.[٨]

يبدو أن بيروت كانت المحطة النهائية في رحلة الشقاء والبؤس بالنسبة لهذا الرجل، ولكنها كانت بالتأكيد محطة البداية لرحلتنا نحن معه.

**وصول الطبيب إلى الهفوف:**

يذكر هربرت بريتسكه _ أو سلامة سليمان كما أطلق عليه البدو_ سبب قدومه إلى الأحساء بتلقيه دعوة من حكومة المملكة العربية السعودية ليتولى إدارة مستشفى تابعة لمكتب الصحة في الهفوف.[٩]

وعلى الأرجح فقد كانت هذه الدعوة في صيف ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، وهو نفس وقت انتهاء خدمته في المستشفى ببيروت[١٠]، وهذا يوضح مدى اهتمام الدولة في الخدمات الصحية في المملكة آنذاك.

وصل الطبيب إلى الأحساء بواسطة طائرة ذات محركين إلى جدة، بوابة المملكة العربية السعودية على البحر الأحمر. وعندها استغل طائرة أخرى إلى الرياض عاصمة المملكة، ومنها أيضا بالطائرة شرقا باتجاه الهفوف.

**طائرة الخطوط السعودية من طراز دوغلاس دي سي 3-عام1945 بشعار الخطوط السعودية القديم**

وهذا الوصف يعطينا صورة عن تغطية مناطق المملكة بخطوط الطيران في ذلك الوقت.[١١]

عند وصوله مطار الأحساء

وجد في انتظاره سيارة كاديلاك. يصف بريتسكه سائقها "بأنه سائق عربي داكن البشرة بجلّابية زرقاء مع مسدس في حزامه المحشوّ بالخرطوش بشكل وافر."[١٢]

**وصف بعض المظاهر العمرانية في الهفوف:**

أشار بريتسكه إلى مطار الأحساء إشارة عابرة بوصفه أبنيته بأنها جديدة وحديثة، حيث تم افتتاح مطار الأحساء عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م وذلك قبل قدوم بريتسكه بنحو عام واحد، وكان أول موقع للمطار هو موقع جامعة الملك فيصل الحالي .

كان أول مبنى يدخله الطبيب الألماني بعد المطار مبنى مكتب صحة الهفوف، الذي يصفه بقوله:" كان هذا بناء جديدا مطليا بالكلس الأبيض بسقف مسطح ككل المنازل هنا "[١٣]، وهذا مطابق تماما لوصف تشيزمان للطراز المعماري في الهفوف خلال رحلته التي سبقت بربع قرن تقريبا[١٤]. ويبدو أن هذه المواصفات كانت تلائم البيئة بشكل كبير، فاللون الأبيض – إضافة إلى توفر الخامة – يعكس ضوء الشمس القوي، والأسقف المسطحة لن تؤذيها الأمطار النادرة في المنطقة، كما يسمح هذا التسطيح باستخدام السطح في الجلوس أو النوم. ويبدو أن هذا الطراز المعماري يلفت نظر جميع الغربيين لعدم توفره في بلادهم، حيث تجبرهم الأمطار والثلوج إلى استخدام الأسطح الهرمية المائلة التي تمنع تراكم شيء فوقها.

يصف بريتسكه التخطيط العام لمدينة الهفوف بأنها بلدة محاطة بسور عليه عدد من الأبراج لغايات الدفاع. وبنفس الطريقة فقد تم تطويق الكوت (*Kut*) أو المدينة الداخلية بالأسوار العالية مع الأبراج الضخمة على الزوايا الأربع. كانت الكوت تضم داخلها القصر حيث يعيش الأمير مع عائلته، وكذلك المسجد

الكبير، والثكنات مع الحامية التي تضم أربعمئة رجل، والأبنية الأخرى التابعة للحكومة. وفي كل ليلة في التاسعة مساء كانت البوابات الضخمة للمدينة الداخلية تُغلق، ولا يمكن أن تُفتح إلا بأمر خاص من الأمير.[١٥]

لم يكن في الهفوف أي فندق في ذلك الوقت لذلك اضطر الطبيب قضاء ليلته الأولى في الهفوف على سطح مكتب الصحة، وفي اليوم التالي وجد منزلا يسكنه.[١٦] يصف بريتسكه منازل الهفوف بأن أغلبها يتكون من طابق واحد، ويتألف من عدد من الغرف بمساحة معقولة، يستخدم بعضها للنوم، وتستخدم إحداها كغرفة معيشة، ويتصل بالمنزل ممر مكشوف يؤدي إلى مسكن النساء. وكان سطح المنزل محاطا بدرابزين واطئ، ويحيط بمجمّع مباني المنزل جدار مرتفع، كما هو الحال في كل بيت ومزرعة في الهفوف. [١٧]

**أنشطة الطبيب الصحية في الأحساء:**

كان الطبيب بريتسكه يمارس عمله الطبي في مستشفى تابع لمكتب الصحة في الهفوف. [١٨] وخصص أيضا غرفة في منزله الذي استأجره لاستشاراته الطبية .[١٩]وفي الغالب أن تخصيص غرفة في المنزل للاستشارات الطبية لم يكن بديلا عن المستشفى، ويبدو أنه كان ضروريا للحالات الطارئة خارج أوقات العمل. كما يقوم الطبيب بزيارة المرضى في منازلهم عند الحاجة، فقد كان كثيرا ما يُستدعى إلى قصر أمير الأحساء لمعالجته أو معالجة أحد أفراد عائلته.[٢٠] أو يذهب لمعالجة أحد الأثرياء أو الوجهاء وأفراد أسرهم في منازلهم. [٢١]

وكذلك كان من الممارسات الطبية التي يؤديها الطبيب معالجته السجناء في سجن القلعة الذي كان يسجن فيه الأشخاص الذين يشكلون خطرا أو أساؤوا للدولة، فقد أمر الأمير بمعالجته لأحدهم، حيث أصيب برصاصة في كتفه، فقام الطبيب بمعالجته في السجن وإعطاءه حقنة مضاد للكزاز وبعض الأقراص المضادة للألم والالتهاب.[٢٢]

لم يكتف الطبيب بممارسة مهامه الطبية داخل الهفوف فقط، بل أجبرته الظروف على أن يقوم بمهمته كطبيب على بُعد مئات الكيلومترات من الهفوف

في مناطق تابعة من الناحية الإدارية للأحساء. فقد أمر الأمير سعود بن جلوي بتوجه الطبيب بريتسكه وطبيب آخر يدعى ناجي برفقة مقتفي الأثر عمر وعدد من الجنود في محرم ١٣٧٢ هـ / آخر أغسطس ١٩٥٢م إلى منطقة البريمي لمعالجة بعض الأشخاص الذين أصيبوا في المواجهات فيها. ولبعد المسافة وخطورة المهمة فقد أوصى الأمير سعود بن جلوي المسؤول عن الفرقة بالحرص على حياة الطبيبين وقال له: " أحملك المسؤولية بروحك عن أمن هذين الطبيبين، إذا حدث لهما شيء فمن الأفضل لك ألا تظهر هنا مرة أخرى"[٢٣]، مما يظهر مكانة الطبيب بريتسكه وزميله لدى أمير الأحساء. وبعد مسير شاق لمدة يومين في صحراء الربع الخالي وصل الطبيب ورفاقه إلى مخيم الأمير تركي بن عطيشان[٢٤] قائد الحملة على البريمي، الذي رحب بهم. وبدأ الطبيب الألماني وزميله الطبيب ناجي بفحص ومعالجة المصابين من طلق ناري وتقديم الإسعافات الضرورية لهم.[٢٥]

أثناء قيام بريتسكه بمعالجة المصابين تعرض المخيم لهجوم أدى لوقوع جرحى، منهم رجل أصيب بطلق ناري اخترق الرئة وكانت حالته خطيرة، ونظرا لقلة الامكانيات فقد كان أقصى ما يمكن فعله له تخفيف الألم دون أمل كبير بإنقاذ حياته.

اضطر الطبيب الألماني إضافة إلى معالجته للجرحى أن يخوض المعركة ضد المهاجمين، وقد أبدى الطبيب براعة فائقة في التصدي لهم، مستخدما خبرته العسكرية التي تمكن من خلالها من قتل أحد المهاجمين بعد اشتباك مباشر معه. بعد التصدي للهجوم تفرغ الطبيب لمعالجة المصابين والاعتناء بهم. [٢٦]

كان الطبيب يضطر أحيانا لإجراء بعض العمليات في منزله، فقد جاء إليه أحد المرضى يشكو من ألم في ركبته يعزوه إلى الروماتيزم، وبعد فحصه تبين للطبيب وجود رصاصة أصيب بها الرجل قبل خمس عشرة سنة، وقد تحركت الرصاصة مع مرور السنين إلى الأسفل حتى وصلت إلى ركبته. كان هذا هو الروماتيزم الذي يتذمر منه. ورغم طلب الطبيب من الرجل مراجعته غدا

في المستشفى لعدم وجود أدوات الجراحة اللازمة والمخدر، إلا أنه أصر على معالجته دون مخدر. وبالفعل قام الطبيب بتعقيم الجزء المصاب، ثم جرح الجلد فوق الرصاصة والضغط عليها لتحريكها، ونجح أخيرا في استخراج الرصاصة بملقط. وكان الطبيب الألماني مندهشا من قدرة الرجل على تحمل الألم.[٢٧]

**سوق الهفوف:**

اهتم الطبيب بوصف السوق بعناية، حيث ذكر أن ساحة السوق تقع أمام مكتب الصحة مباشرة، وكانت تعج في ضحوة النهار بالتجار والزبائن والمتسكعين. وقد تم تخصيص أنماط معينة من المحلات لشوارع خاصة أو أجزاء من الشوارع. فيمكن للمرء أن يرى تجار السجاد وخلفهم أصحاب أكشاك الفاكهة والخضار. ثم يأتي الصرافون والخياطون، وتجار الأسلحة، بينما انتشر في المساحات الفارغة لتلك المحال المختلفة باعة متجولون مع صوانٍ مليئة بالحليّ الصغيرة.

**سوق الخميس بالهفوف1938 م**

**جزء من سوق القيصرية بالهفوف1945 م**

" كما كان هناك منادي البلدة الذي يحل محل الإعلانات في الجرائد ، وكانت مهمته الحصرية أن يلفت نظر كل المشترين والباعة الآخرين في ساحة السوق : معزة للبيع ! سويلم الكياشي لديه معزة للبيع! فقد أحدهم حزاما أزرق! أمَة فتيّة للبيع".[٢٨]

**أمير الأحساء وشخصيته:**

بمجرد وصول الطبيب بريتسكه إلى مكتب الصحة بالهفوف أخبره مدير المكتب الذي كان سوريا يُدعى الدكتور فؤاد بأن الأمير يرغب برؤيته عند الساعة الحادية عشرة.[٢٩]

يصف بريتسكه أمير الأحساء سعود بن عبدالله بن جلوي[٣٠] بقوله ":" كان رجلا ضخم البنية، بلحية كاملة سوداء". [٣١]ويذكر بأن الأمير أخذ ينظر إليه بعين متفحصة ثم قال له" لماذا لا ترتدي جلابية، كرجل عاقل؟" فأوضح الطبيب أنه لم يكن لديه الوقت لشراء ثوبا محليا خاصا، وأنه سيعمل على ذلك.[٣٢]

وموقف الأمير منه يذكرنا بموقف أبيه الأمير عبد الله بن جلوي من تشيزمان، ولكن أباه تصرف على نحو آخر فلم ينهر ضيفه[٣٣]، ولعل السبب أنه كان يتعامل مع ضيف الملك عبدالعزيز شخصيا، أما ابنه فكان يتعامل مع موظف أجنبي لم يحظ بتوصية خاصة من الملك.

ولكن الطريف في الموقف هو صدمة الطبيب الذي كان يتوقع من الأمير أن يحدد له واجباته الوظيفية، وبدلا من ذلك ركز الأمير على الشكل والهيئة، وهذا أمر قد لايفهم الغربيون أهميته في شبه الجزيرة العربية، وفي المملكة خصوصا في ذلك الوقت بشكل واضح.

التقى الطبيب الألماني مرة ثانية بلقاء خاص مع أمير الأحساء بعد مضي ستة أشهر من العمل في خدمة الدولة، ففي وقت متأخر من إحدى الليالي تم استدعاء الطبيب لمقابلة الأمير سعود بن جلوي. شعر بريتسكه بالذعر الشديد، لسببين أولهما توقيت طلب المقابلة، وثانيهما أن المرسول هو يحيى الجلاد الذي جاء بسيفه الضخم المعقوف[٣٤]. فيقول بريتسكه " أصبح الارتعاش في معدتي أسوأ ... وخامرتني الخواطر أنه ربما كانت ثمة محاكمة

مع القاضي الذي يجلس في ساعة متأخرة من الليل. ما الذي يمكن أن يريدوه مني؟".[٣٥]

بعد وصول بريتسكه إلى مقر الأمير الذي طلب منه بالجلوس، وأثنى على عمله خلال الفترة التي قضاها في الهفوف، وفاجأ الأمير الطبيب بسؤال "هل تظن أن الأمريكيين أفضل أم البريطانيين؟" فأجاب الطبيب الأميركيون أفضل، فقال الأمير وهذا رأيي أيضا. ودار حوار بين الأمير والطبيب حول أهداف كل من الأمريكيين والبريطانيين، واتضح منه رؤية الأمير سعود بن جلوي التي تتمثل في أن تعامل المملكة مع الأمريكيين تعامل اقتصادي بمناصفة أرباح النفط – في ذلك الوقت –بعد استخراجه من قبل الشركات الأمريكية، بينما الإنجليز كان لهم أهداف أخرى تتمثل في إرسال البعثات التنصيرية ليحولوا الناس عن دينهم، وأهداف اقتصادية بالسيطرة على اقتصاد المنطقة، وأهداف عسكرية باحتلال الأرض[٣٦]. ولا شك في أن رؤية الأمير تكشف عن حقيقة التواجد البريطاني في المنطقة، وسياستهم العامة في العالم كله في ذلك الوقت، وهذه الرؤية العميقة من أسباب تفضيل المملكة للشركات الأمريكية على نظيرتها البريطانية في إعطائها امتيازات التنقيب عن النفط.

وقد تقودنا رؤية أمير الأحساء إلى طرح تساؤل حول كيفية اختيار الطبيب الألماني أو سلامة سليمان من بيروت لوظيفته في الهفوف؟ يبدو أن الاختيار لم يكن عشوائيا بل يخضع لمواصفات محددة توفرت فيه، خاصة وأن الأطباء الإنجليز كانوا في البحرين قريبين من الأحساء ويمكن الاستعانة بأحدهم كطبيب رسمي للصحة في الهفوف.

تكررت لقاءات الطبيب بالأمير سعود الذي كان يدعوه كثيراً إلى القصر لمعالجته أو معالجة أحد أفراد عائلته. ويبدو أن الأمير ارتاح للطبيب الألماني وعقليته المميزة، فحرص على استدعائه والتحدث معه في أمور شتى. يذكر بريتسكه أن الأمير سعود " اعتاد كلما شعر برغبة في الحديث معي، أن يرسل إليّ سواء كنت في المستشفى أو من فراشي. كانت تباغته رغبته في محادثات كهذه في أكثر الأوقات حرجا"[٣٧]

كانت اهتمامات الأمير تدور حول عشرات المواضيع، ويجعل بريتسكه يتحدث لساعات معه عن ألمانيا وبعض البلدان الأوروبية الأخرى. وللتعرف على اهتمامات الأمير سعود يقول بريتسكه " كان واضحا أنه – الأمير سعود– لم يكن هناك أي فائدة من إخباره عن مسارحنا وحفلاتنا الموسيقية أو متاحفنا. كان كل ما في عقل الأمير الواقعي اهتمام كامل بالمظاهر العملية للحياة الغربية: المؤسسة العسكرية، الصناعة، الطب، العائلة" .[٣٨]

وحديث الطبيب الألماني يكشف اهتمامات أمير الأحساء آنذاك، وهذا يتوافق مع اهتمام الدولة بالاستفادة من النواحي الإيجابية للحضارة الغربية. ففي إحدى لقاءات الأمير مع الطبيب تحدثا عن النظام الطبي القانوني في ألمانيا. فبين الطبيب بريتسكه بأن لديهم أطباء خاصون للسجن، وكذلك خبراء طبيون قانونيون واجبهم أن يثبتوا سبب الوفاة عند الشك بوجود حالة قتل. يقول بريتسكه "وقبل أن أغادر القصر بعد هذه المحادثة وجدتُ نفسي قد عُينت طبيبا لمحكمة العدل في الهفوف. ولو أنني كنت أعرف ما هي الواجبات التي تتطلبها هذه الوظيفة، لكنت فضلت أن يُقطع لساني على أن أتحدث عن العلاقات الألمانية بين الطب والقانون ". [٣٩]وهذا التعيين يؤكد رغبة أمير الأحساء في الاستفادة مما في الغرب من إيجابيات.

ويشير برتسكه إلى أن الدعوات لمقابلة الأمير –رغم عدم مناسبة أوقاتها أحيانا –إلا أنها كانت سببا في دعم مركزه ومكانته. [٤٠]

**النظام القضائي في الأحساء ( محكمة الأحساء):**

يتحدث بريتسكه عن النظام القضائي السعودي وقتها بخصوصيته وأسلوبه في تحقيق العدالة .[٤١]ويصف هذا النظام بقوله:" يتم إقرار العقوبات في المملكة العربية السعودية لكل جناية على حدة وفقا لحكم القرآن، الذي يحوي أكثر بكثير من ناحية التشريع الاجتماعي والجنائي مما يحويه الإنجيل".[٤٢]

وهو يسلّم بدايةً بأن القرآن الكريم هو المرجع القانوني للقاضي. ومما ساعد بريتسكه على الحديث عن النظام القضائي أن أمير الأحساء سعود بن عبدالله ابن جلوي عينه طبيبا لمحكمة العدل في الهفوف. [٤٣]

وقد لاحظ بريتسكه أن القرآن يشتمل على كثير من التشريعات الاجتماعية والجنائية التي لا يجدها في الإنجيل، وهذه الملاحظة لم يشر إليها هاريسون (المنصِّر)، الذي درس تعاليمه بشكل دقيق وعمل على نشرها في شرق شبه الجزيرة العربية.[٤٤]

يذكر الطبيب الألماني أنه خُصص يوم الخميس في الأحساء لتنفيذ الأحكام والعقوبات المعلنة أثناء الأسبوع الفائت. ولهذه الغاية كانت مفرزة من الشرطة تُخلي مركز السوق كميدان يساق إليه الأشخاص المدانون لتنفذ فيه الأحكام. وكانت الجرائم الثانوية تعالج بالجلد، حيث يحضر عبيد الأمير المذنب إلى الميدان ويثبتونه بالأرض، ويقوم بمهمة جلد الجاني رجل أسود قوي البنية، مستخدما غصن نخيل. ويحضر كاتب المحكمة تنفيذ الحكم ويسجل عدد الضربات على نسخة الحكم ويحصي كل ضربة إذا تركت أثرا على ظهر الجاني. ومن صلاحياته معاقبة الجلاد بضربه بسوط لديه إذا ما بدا له أن ذلك الأخير لم يضرب بالقوة الكافية [٤٥]

فرضت على الطبيب الألماني وظيفته كطبيب للمحكمة حضور تنفيذ بعض الأحكام في الميدان، ومنها تنفيذ حد السرقة على المجرمين من أصحاب السوابق الذين تمت إدانتهم بالسرقة، فقد كان السارقون يجلدون عند جريمة السرقة الأولى والثانية، أما الجريمة الثالثة فكانت تعاقب ببتر اليد اليمنى. حيث يقدّم مساعدو الجلاد يد الجاني بشكل أفقي وهي مشدودة بالكامل، ثم يقوم الجلاد بشق جرح سطحي على معصم الجاني، ليعلّم المكان حيث يريد أن يضرب، ثم يخطو خطوة إلى الوراء ويقطع اليد بضربة صاعقة خاطفة من سيفه المعقوف الموجه بدقة من مسافة قريبة، فتسقط اليد المقطوعة على الأرض، ثم تُغمر اليد في وعاء صغير مملوء بدهن يغلي بجانب مكان تنفيذ الحكم لمنع حدوث النزيف، وتُربط اليد المقطوعة حول رقبة الجاني، الذي يؤمر بمغادرة المدينة في الحال.[٤٦]

يعلق الطبيب – رغم وصفه العقوبة بالشكل الهمجي –على سرعة وعلانية تنفيذ الأحكام بقوله: " أن إحدى الحسنات البارزة للعقاب هي أن أي شخص

يمكن أن يترك باب منزله مفتوحا في الليل، دون خوف من السرقة التي تصبح متاحة وسهلة، لكن المجازفة لم تكن تستحق عناء المضيّ بها. وقد كان الخوف من التعرض للاشتباه في التخطيط لسرقة باديا حتى في المرضى الذين يقرعون بابي دون أن أُحدث أية ردة فعل مني، فقد اعتادوا أن يغادروا المنزل بسرعة خشية أن يتم إيجادهم هناك ويُشتبه بهم بقصد السطو ".[٤٧]

وتعليقا على وصف الطبيب الألماني العقوبات بالهمجية والتي يعني فيها بالتأكيد الوحشية، فهذا الشعور يرجع إلى المشكلة الأزلية التي تنشأ من عدم التزامن بين الجريمة والعقوبة عليها، فالعقاب يتم أمام الجميع بعد أن تزول آثار الجريمة التي غالبا ما تتم في الخفاء، فينتقل الشعور بالشفقة على الضحية إلى شخص الجاني الذي يبدو كأنه هو الضحية. وستظل هذه المشكلة قائمة طالما تُوقّع العقوبة على مرأى من الناس، وهذه في الحقيقة هي فلسفة العقوبة في الإسلام، فالمقصود منها ليس إيذاء الجاني وإنما ردع الآخرين. كما أن تطبيق الحد لا يتم إلا بشروط دقيقة فصّلها الفقهاء، لدرجة أن بعض الحدود لها شروط يستحيل تحققها، وليس من سبيل لتطبيق العقوبة إلا باعتراف صريح من المتهم.[٤٨]

والمؤلف نفسه ذكر – سابقا – أن قطع اليد لم يكن يوقّع إلا على العتاة من المجرمين الذين لم يفلح معهم الجلد أو غيره، كما أن الترتيبات الدقيقة التي وصفها في توقيع العقوبة تنفي عنها الوحشية.[٤٩] ثم إن أمر الجاني بمغادرة المدينة بعد توقيع العقوبة يحمل الكثير من الشفقة عليه، لأنه لو بقي مع احتمال تكرار الجريمة فسوف يتعرض لعقاب أشد قد يكلفه حياته نفسها.

وفي النهاية فقد اعترف المؤلف بالحسنات البارزة لتطبيق الحدود، حيث جلب له الشعور بالأمان وهو نائم في منزل أبوابه مفتوحة.

أيضا فرضت عليه وظيفته كطبيب للمحكمة مرافقة دورية شرطة للكشف على جثة رجل مجهول وإجراء تحقيق في مسرح الجريمة عند غدير ماء يبعد خمسين كيلو مترا عن الهفوف. وبالفعل تمكنت دورية الشرطة من القبض على الجاني، وبعد عدة أسابيع جرت محاكمة الرجل بحضور الشهود، ومنهم الطبيب

الذي وصف المحاكمة قائلا: " وعندما وصلت قاعة المحاكمة بالدقة الألمانية، كانت تُقضى شكوى أخرى. كان الأمير سعود حاكم ورئيس المحكمة لمنطقة الأحساء مقيما للعدل حسب أوامر القرآن في كافة الدعاوى المدنية، وكذلك كان القاضي الأعلى في جميع الدعاوى القضائية الجنائية، الكبيرة والصغيرة ".[٥٠]

وهذه العبارة توضح ما أشرنا إليه سابقا من أن شؤون الشرطة والقضاء كانت من أهم مسؤوليات أمير الأحساء في منطقة سلطته، ورغم أن كل من كتبوا عن نظام الحكم في شبه الجزيرة العربية اعتبروا هذا من قبيل السلطة المطلقة للشيخ العربي، المرادفة عندهم للاستبداد، إلا أن هذا المفهوم لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة. لقد وزن هؤلاء الأمور بموازينهم التي يعرفونها في بلادهم، التي تحرص على فصل السلطات وتعددها لتكون كل واحدة منها رقيبة على الأخرى، ومع ذلك تظهر بين الحين والآخر بعض قضايا الفساد، فكيف إذا تجمعت السلطات كلها في يد واحدة ؟! ..

ولكنهم يغفلون عن الحقيقة الكبرى في دولة نزل القرآن في أرضها، واتخذت هذا القرآن دستورا لحياتها، وأول مبدأ في هذا الدستور هو الإيمان بإله واحد، سيحاسب الناس جميعا على أدق الأمور. وهذا يعني أن الحاكم محكوم بهذا الدستور الرباني، ويخشى أن يحيد عنه قيْد أنملة اتقاء لغضب الله، فسلطته الوحيدة هي تطبيق ما جاء في هذا الكتاب السماوي مجتهدا في الفهم. والقرآن الكريم في متناول الجميع وآيات الحدود واضحة لكل من يعرف العربية، فلا حاجة لمحام ولا سبيل للتلاعب. ولا شك أن خوف المسؤول من الله أشد – أو يجب أن يكون – من خوفه من سلطة أخرى.

وبالعودة إلى قاعة المحكمة حيث دخل الطبيب وأشار إليه الأمير سعود وأجلسه بجانبه على المنصة، وكان الأمير يباشر أحد القضايا. وبعدها أُحضر المتهم بالقتل مكبلا بالسلاسل إلى المحكمة بأمر الأمير، فقدمت أنا والرقيب شهادتينا فيما يتعلق باكتشاف الجثة والظروف التي أُعتُقل فيها المتهم، الذي أقر باعتراف صريح بجريمته خاضعا إلى حكم الأمير فيه، الذي – بحسب النص القرآني – سيحكم عليه بالموت بالسيف.[٥١]

نُفّذ الحكم في اليوم التالي، وبحسب العرف فقد أخلت الشرطة مكانا في ساحة السوق، وتم اقتياد القاتل إلى مكان التنفيذ من قِبَل عبيد الأمير حيث كان الجلاد بانتظاره بسيفه، وكذلك كان حاضرا أيضا موظف الحكومة الذي يقتضي واجبه الإشراف على الدعاوى القضائية.

وبالفعل تم تنفيذ حكم الإعدام بحق القاتل بضرب رأسه بالسيف.[٥٢]

لقد تم إجراء محاكمة وسماع شهادة الشهود، رغم القبض على الرجل واعترافه بجريمته، وتم إصدار الحكم بناء على قانون مكتوب في القرآن الكريم يدين له الحاكم والمحكوم كلاهما، وبعد الاستماع إلى شهادة الشهود وملابسات الحادث. فأين السلطة المطلقة والهمجية في تنفيذ الأحكام ؟! ..

والملفت للنظر في المحاكمة هو التقدير الواضح من الأمير للطبيب الألماني، ويظهر في دعوته إلى الجلوس بجانبه وحديثه الودّي معه. فارق كبير بين المقابلة الأولى عقب وصول الطبيب إلى الهفوف ومقابلته في المحكمة، حيث استقبله كصديق عزيز .[٥٣]

**سجن العبيد:**

يذكر الطبيب أن هناك سجنان في الأحساء في ذلك الوقت، أحدهما سجن الشرطة الذي كان الجانحون يُلقون فيه منذ ساعة اعتقالهم حتى تنفيذ حكمهم، كان هذا السجن دائما مفتوحا أمامه، حيث أن الطبيب كان مسؤولا عن صحة السجناء فيه. والآخر سجن العبيد، وفيه يُحتجز أشخاص مذنبون بالإساءة ضد الدولة.[٥٤]

يقع سجن العبيد داخل حصن الكوت، وسمى بذلك لأنه كان في أوقات السلم يُستخدم كسجن للعبيد الآبقين، الذين كانوا يُحتفظ بهم هناك ويخضعون إلى عملية تليين إلى أن يأتي أسيادهم لجلبهم. وكان يطلق عليه أيضا اسم القلعة. [٥٥]

أتيحت الفرصة للطبيب لزيارة هذا السجن عندما صدر الأمر من الأمير بمعالجة أحد السجناء فيه. ويصف الطبيب سجن القلعة بأن له باب مصفح بالحديد ومنخفض بحيث يضطر الداخل له بالانحناء ليمر عبره، ولا يفتح الباب

قبل التأكد من القادم إليه عبر ثقب فيه بحجم يد الرجل. ويؤدي الباب إلى فناء به دهليز له مدخل له باب كمدخل ثان للسجن، يؤدي إلى مجموعة من الدرجات الحجرية للأسفل تقود إلى غرفة واسعة حصينة بها السجناء، وغرفة أخرى للصلاة والطعام. [٥٦]

وإذا كان بريتسكه قد أفاض في وصف السجن فإنه لم يبرر سبب وجود هؤلاء المساجين هناك سوى أنهم أساؤوا للدولة، ولكنه لم يوضح وجه الإساءة.

إلا أنه من الواضح أنهم كانوا يمثلون تهديدا خطيرا لوجود الدولة يتطلب هذا العزل. وهذا المبنى كان من بقايا العسكرية التركية في الأحساء.

**الرقيق في الأحساء:**

يعطينا الطبيب بريتسكه صورة عن تجارة الرقيق في الأحساء وقتها، –تجارة الرقيق غير موجودة اليوم - [٥٧] فيذكر أن تأمين العبيد يتم بشكل حصري من الساحل الشرقي لأفريقيا من قِبَل التجار والغزاة. لكن هذه التجارة –عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م–قد قاربت على التوقف تقريبا، إلا أنه عبر تجارة مستوردة من العبيد من قطر، وعمان، وحضرموت، والحبشة. ومعظم العبيد في الأحساء والمملكة عموما ينحدرون من سلالات عبيد. [٥٨]

يصف الطبيب الألماني حياة العبيد في الأحساء خلال إقامته فيها بأنهم يعامَلون على الدوام بشكل أفضل من العمال الأحرار والموظفين. وكانوا دائما ما يبدون أكثر انتعاشا، ويلبسون بشكل أفضل من بعض الأفراد الأحرار، لأنهم كانوا يُمثلون مالكيهم، فالعبد الذي لا يتغذى بشكل جيد، أو يرتدي ملابس رديئة أو سيئة يعود بالعار على سيده. [٥٩]

ثم يشير إلى ملاحظة عجيبة عن العبيد قد لا نتصورها بمنطقنا العفويّ قائلا:" رأيت خلال السنة المئات من هؤلاء الناس، وعالجت بضعة مئات منهم كانوا يُرسَلون للعلاج لأتفه عذر". [٦٠]

ويضيف المؤلف ملاحظة أخرى أعجب من سابقتها عندما يصف المهام الموكلة للعبيد في قصر الأمير، والذين يُعدّون بمجملهم حوالي المئتين، فقد كان لكل منهم مهمة شديدة الوضوح والتحديد، فتحضير القهوة مثلا موزعة بين ثلاثة

من العبيد: واحد ليحمص البن ويطحنه، وواحد ليغلي القهوة، وآخر ليقدمها. وهكذا كان الحال في مهن أخرى، فكان لكل عبد مهمة مخصصة. أما العمال الأحرار فقد كان عليهم أن يكدحوا للحفاظ على حياته، بينما كانت أمور العبيد جاهزة ومرتبة دون أي إلزام بالعمل الشاق، لذلك كان العبيد راضون عن حياتهم. ويقول الطبيب " أنه لا يمكن للمرء أن يُنزل عقوبة قاسية بعبد أكثر من أن يحرره من حياته الخالية البال من الهموم والمسؤوليات وإطلاقه إلى حياة الحرية. وقد سمعتُ بحالات أن عبيدا محررين قد أتوا يقرعون أبواب أسيادهم السابقين ويتوسلون إليهم وعيونهم ملأى بالدموع لكي يعودوا ".[٦١]

ويؤكد هذا الرأي ما نشره الدكتور جورج رنتز مستشار الشؤون العربية في شركة أرامكو الذي عاش في المملكة قرابة خمسين عاما حيث أوضح أن العبيد في السعودية يعاملون بصفتهم أعضاء في الأسرة، وكثير منهم يرفضون الحرية عندما عرضت عليهم. [٦٢]

وقد يكون ذلك بسبب الأثر النفسي للعبودية خلال فترة طويلة نسبيا، فهي تجعل الإنسان غير قادر على الاستقلال ومواجهة الحياة منفردا، ولذلك يرى العبودية هي الجنة الموعودة التي لا يحمل فيها هما أو يتعرض لغائلة الجوع. ويبدو أن العبيد في شبه الجزيرة العربية كانوا محظوظين، حيث يعيشون في نفس مستوى مالكيهم، لأنهم يمثلون واجهتهم الاجتماعية.

على أن هناك تجربة إنسانية عاشها الطبيب الألماني في الهفوف، وتحمل هذه التجربة – في رأينا – قيمة تاريخية وإنسانية لا يصح أن نتجاهلها.

ففي إحدى ليالي عام ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م تم استدعاء الطبيب إلى منزل– إبراهيم بن مهنا[٦٣] – أحد تجار الأحساء لمعالجة أَمَةَ المريضة . وبعد استقباله والقيام بواجب الضيافة، بدأ في فحص المريضة، لفت نظره أمة كانت مرافقة لوالدة التاجر، فتبادلا الحديث وتبين أنها من حمص في سوريا وقد زوجها والدها من رجل استغل جهلها بالقراءة والكتابة واستقل معها طائرة إلى جدة وهناك باعها على أنها أحد الإماء، وظلت تباع وتشترى متنقلة من واحد لآخر حتى وصلت إلى الأحساء.[٦٤]

تعاطف الطبيب بريتسكه مع هذه الأمة وانتهز أحد لقاءاته مع أمير الأحساء سعود بن جلوي في أيام أحد الأعياد عندما سأله الأمير إذا كان يستطيع أن يلبي له أية رغبة بمناسبة العيد، فطلب من الأمير إعطاء هذه الفتاة حريتها.[٦٥]

فأوضح الأمير أنه لا يستطيع تحريرها غير سيدها فقط، ولكنه سيشتريها ويهديها للطبيب الذي بإمكانه الاحتفاظ بها أو إطلاق سراحها. وبالفعل تم عتقها وسافرت إلى بلادها، وقد قابلها الطبيب بعد سنوات وقد تزوجت وأنجبت ثلاثة أولاد.[٦٦]

ويثني الطبيب على الطريقة التي أعتقت بها هذه الأمة بقوله " لم يكن هناك مكان للخطف في هذه الأرض الهانئة الوادعة بحقول نفطها وخطوطها الجوية..."

**الحالة الأمنية في الأحساء: (النظام الأمني في الأحساء)**

شهدت الأحساء اختلالا في الأوضاع الأمنية قبل دخولها تحت حكم الملك عبدالعزيز[٦٧]، إلا أن هذه الأوضاع تغيرت بشكل كبير بعد ذلك. ويكشف الطبيب الألماني عن صورة واضحة للحالة الأمنية في الأحساء من خلال مرافقته – بصفته طبيبا للمحكمة – دورية للشرطة لإجراء تحقيق في مسرح إحدى جرائم القتل التي تم الإبلاغ عنها.

توجه الطبيب برفقة أربعة من رجال الشرطة، سائق الدورية وجندي ورقيب ومتخصص في اقتفاء الأثر إلى مسرح الجريمة عند غدير ماء يبعد خمسين كيلو مترا من الهفوف حيث تم الابلاغ عن وجود جثة لشخص مجهول. يروي الطبيب بأن الجثة قد تأثرت بفعل مخالب ومناقير الطيور الجارحة ورغم ذلك فقد اكتشف أثر طعنة لخنجر في جسد القتيل، إلا أن الطبيب يبدي إعجابه من قدرة وتعامل فريق التحقيق، حيث تم الكشف عن تفاصيل الجريمة في مسرحها فيقول: "بينما كان رجلا الشرطة يدفنان الرجل الميت قادنا عمر – مقتفي الأثر–، الرقيب وأنا ، إلى الأعلى إلى المنحدر الحجري الذي يشرف على غدير الماء حتى وصلنا إلى السطح الرملي للصحراء. وقف هناك وأشار إلى ثلاث

آثار لرجال مشاة، اتجه اثنان منهما باتجاه غدير الماء والثالث في الاتجاه المعاكس.ثم ركع وقاس عرض آثار الأقدام بمقياس خشبي رفيع أخرجه من جيبه.عاد الرجل ذو الأقدام الأصغر، قال، «لديه رقعة على عقب خفه الأيمن»، وأشار إلى شكل غريب في طبعة القدم. تتبعنا آثار الأقدام حتى وصلنا إلى فجوتين كبيرتين مسطحتين في الرمل.«هنا بركت الجمال ». كانت هناك آثار جمليْ متاع قد أتيا من الشرق إلى المكان، واقتيدا بعد ذلك باتجاه الجنوب. تابع عمر: أتى رجلان إلى هنا في الصباح الباكر. إما أنهما معارف أو تعرف أحدهما على الآخر في الطريق، وقد انطلقا معا. الآثار متوازية ولا يتقاطع أحدها مع الآخر أبدا، برك الجملان كلاهما هنا وترجل الرجلان وهبطا معا إلى غدير الماء، وهناك قتل أحدهما الآخر. عاد القاتل وحده وانطلق بعيدا مع الجملين ".[٦٨]

ونتوقف هنا قليلا لنستوعب ما تحمله هذه الأحداث من أمور ملفتة للنظر! ..

فرغم أن الجريمة حدثت منذ ساعات معدودة ومسرحها بعيد نسبيا، إلا أن اكتشافها وبدء التحقيق لم يستغرق وقتا كثيرا مع صعوبة الانتقال والافتقار إلى وسائل الاتصال الحديثة، فضلا عن عدم وجود أجهزة علمية ضرورية في مثل هذه الأمور. وفي هذا دلالة واضحة على إحكام السيطرة على المناطق النائية في الأحساء.

ظهرت قدرة العنصر العربي وقتها على تكوين فكرة كاملة عن ظروف الجريمة من خلال الملاحظة العينية فقط، والبراعة الفائقة في اقتفاء الأثر وقراءة أبجدية الصحراء.

إضافة إلى الجدية الكاملة في تحقيق العدالة، حيث تمت ملاحقة القاتل مباشرة اعتمادا على اقتفاء أثره، حيث أفاد عمر المختص في ذلك بأن الجملين كانا جملي أمتعة مسنين، وأنهما رُكبا طوال الليل، ولا بد أنهما أُرهقا تماما، وأشار إلى طبعاتهما وأظهر كيف أن الجملين كانا يجرّان أقدامها للأمام. وتوقع أن ندرك القاتل خلال ثلاث ساعات.

أثناء ملاحقة القاتل لفت نظر الطبيب الثقة في الامساك به من قبل الشرطة، حيث استغرب من توقفهم لأداء الصلاة، ويقول:" بدا غريبا بالنسبة لي أنه بينما كنا نطارد قاتلا هاربا قد أضعنا آثاره، وربما قد نحتاج ساعات لإيجادها مرة أخرى، أن نُدعى لوقفة من أجل الصلاة. إذا لم نلحق به في الحال، فقد يجد الهارب فرصة ويفرّ مباشرة مع انطلاقه البعيد.

ألا تستطيعون تأجيل صلاتكم ؟ – قلت، والجميع مشغول –بالتأكيد أن إلقاء القبض على قاتل يجيز تأخير الصلاة! ..

كان الرجال الأربعة قد خرجوا فعلا من الچيب وفرشوا حصير صلاة من القش على الأرض.

قال لي عمر برنّة احتقار في صوته: هذا شيء لا تفهمه أنت. إذا شاء الله فسوف نمسك بالقاتل حتى إذا حمل على جمل طائر.

وعند هذا الحد استدار، وخلع خفّه متوجها بوجهه نحو مكة، وبدؤوا جميعا باتخاذ وضعية الصلاة".[٦٩]

على أن الشيء الملفت للنظر هنا أن الطبيب بريتسكة يتعامل مع الأحداث وكأنه تلميذ يتعلم، دون أن يداخله شعور بالاستعلاء مثل أقرانه من الرحالة السابقين.

انتهت الصلاة وعاد الجميع إلى رحلة المطاردة، حيث تم القبض على القاتل قبل مسافة قصيرة من " عين نجم" الماء العروف قرب الهفوف بعد مقاومة من القاتل وإطلاق النار منه على الشرطة، إلا أنه تم القبض عليه بعد إصابته بحجر في رأسه أفقده الوعي.

يروي الطبيب تعامل الشرطة مع القاتل بشيء من التعجب فيقول: " وعندما عاد وعيه إليه كان سعيدا أن يقبل كأسا من الشاي من الرجل الذي ضربه بعنف. لم يكن مقيدا، وبدا سعيدا وهو يجلس مع معتقليه يشرب الشاي حول نار من العيدان والأعشاب، ولا يتوجب عليه القيام بأية محاولة إضافية للهرب، هكذا نظر إلى الأمر، لقد ارتكب جريمة قتل عمدا ثم قام بكل ما في وسعه للهرب. لقد تورط في معركة يائسة، لكن الآن وقد أُسر وجُرّد من سلاحه، فقد استسلم

بإيمان شرقي بالقضاء والقدر.

إلى الصلاة! يا رفاق، إلى الصلاة! صاح عمر مرة أخرى، ونهضت المجموعة الصغيرة مجهزين أنفسهم لأداء الفريضة، كان عمر الإمام ووقف الآخرون صفا خلفه، وتحولت وجوههم باتجاه مكة – الرقيب محمود، القاتل، والشرطي المجروح ورفيقه".[٧٠]

لقد استرسلنا في سرد تفاصيل المطاردة لأنها تكشف النظام الأمني المطبق في الأحساء، وتُبرز كيفية تعامل الشرطة مع القاتل، فمشهد المجرم مع حراسه لا تظهر فيه حتى أية ضغينة بين الجانبين، ولم تلجأ الشرطة إلى قتله في مكانه والتخلص منه توفيرا للوقت والجهد، بل لم تلجأ لحرمانه من الشاي رغم أنه تسبب في إصابة شرطي.

ويكشف الطبيب عن كيفية بسط الدولة سيطرتها الأمنية على الصحراء الشاسعة، وكيف أنه لا يمكن لأحد أن يختبيء في الصحراء. فالناس يحتاجون طعاما وماء، ومعظم الجيوب المائية هي واحات مسكونة، حتى تلك الينابيع التي تُحفر بشكل سرّي معروفة للشرطة. وعلى المطلوب للأمن أن يذهب إلى أماكن المياه. وكل فرد في القبيلة يعرف الأفراد الآخرين، وبالتالي فالغريب يظهر في الحال، على الرغم من أنه يُستقبَل بالتأكيد بالضيافة المألوفة، حيث إنه في الصحراء لا أحد يرفض الطعام والماء والملجأ. لكنه واجب العُمدة [٧١]أن يسأل كل غريب من أين أتى وإلى أين سيذهب، ولأي قبيلة ينتمي ".[٧٢]

وفي حال إهمال العمدة واجباته فإنه يتلقى عقابا قاسيا يشاركه فيه قبيلته أو أهل قريته بدفع الغرامة المالية. لذلك يمتنع أي عمدة أو شيخ قبيلة من اقتراف عمل يؤدي إلى مساعدة هارب من العدالة. ويؤكد الطبيب الألماني بأن المجرم من السهل عليه الهرب في مدينة عصرية مزودة بقوة شرطة، من أن يختبئ في صحراء الأحساء.[٧٣]

ورغم أن الصحراء في مصر كانت طريق المؤلف للهروب، إلا أن الصحراء في شبه الجزيرة العربية كانت مصيدة حقيقية للهاربين، ليس لاختلاف في طبيعة الصحراء نفسها وإنما لدقة النظام الأمني في المملكة.

وإذا كنا قد أشرنا سابقا إلى الجدية الغريبة في ملاحقة المجرم داخل الصحراء، رغم أن الجريمة كان من الممكن أن تمر مرور الكرام دون أن تلفت النظر، إلا أنه لو أفلت الجاني فلن يكون هناك أمل في استقرار أمني يوما ما، فالقصة ستنتشر عند المحاكمة وستكون العقوبة رادعا للجميع. وهو ما يحقق عدالة الشريعة الإسلامية.

أحداث هذه الجريمة تُبين فلسفة النظام الأمني في المملكة منذ تأسيسها على يد الملك عبد العزيز، والتي تتلخص في مشاركة القبائل في تحمل المسؤولية تجاه حفظ الأمن، ورغم بساطة الفكرة إلا أنه لم يكن في الإمكان الحفاظ على الاستقرار في هذه الدولة المترامية الأطراف إلى يومنا هذا بغير هذه الفلسفة. فهذه المشاركة المسؤولة هي التي أوجدت الترابط بين القبائل المتناثرة وحققت وحدة الدولة، عندما أوجدت ارتباطا قويا مسؤولا بين الإنسان ووطنه.

وما يذكره الطبيب بريتسكه عن الحالة الأمنية في الأحساء في عهد أميرها سعود بن جلوي، لا يختلف كثيرا عن حديث هاريسون وتشيزمان منذ ربع قرن في عهد والده الأمير عبد الله بن جلوي،[٧٤] مما يدل على الانضباط والثبات في تطبيق فلسفة الحكم بنفس الدرجة، رغم اختلاف الأجيال وأحوال المعيشة.

## خاتمة

يختلف بريتسكِه في كتابته عن الأحساء عن غيره من الرحالة الذين زاروها، فهو لم يأت إلى الأحساء باحثا ولا دارسا ولا موفدا من دولة، ولا حتى سائحا. وبالتالي فقد خلت كتابته عن الأحساء من كثير من الموضوعات التي تناولها غيره في رحلاتهم المخططة بعناية، فلم يتحدث – مثلا –عن النخيل أو الحمير البيضاء أو الأنشطة الاقتصادية في المنطقة.

إنه لم يتناول إلا ما يمس تجربته الإنسانية دون أية أهداف يتطلع إليها سوى إخراج هذه التجربة، التي قد يستفيد منها الآخرون بطريق غير مباشر.

وهو لم يدخل الأحساء كضيف مميز بتوصية خاصة من الملك، أو حتى كمواطن ألماني يمتلك أوراقه الثبوتية التي تمنحه شيئا من الحصانة، بل دخل الأحساء كهارب من معسكرات الاعتقال البريطانية في مصر، والمعارك الفوضوية في فلسطين، يبحث عن مأوى يحميه ووظيفة تكفل له عيشا يكفيه غائلة الجوع والحاجة. إنه لم يدخل الأحساء من السماء ولكن زحفا على الأرض، لقد عاش حياته في الشرق – إن جاز التعبير – في قاع المجتمع، وهذا ما يعطي كتابته قيمة تاريخية قد لا نلمسها في الكتابات الأخرى، لأنه كشف لنا عن جوانب خفية لا يراها الناظر من الأعلى.

والغريب حقا أن هذا الرجل قد وافق على العمل في مكتب صحة الهفوف يدفعه إلى ذلك حنينه لحياة الصحراء، تلك الحياة التي عاشها مع البدو في صحراء مصر الشرقية عقب هروبه من معسكر الاعتقال.

وهو عاصر بعض الأزمات السياسية الهامة في المنطقة، كأزمة البريمي التي عاش جزءا من أحداثها الفعلية، فضلا عن مشاركته في أزمات أخرى خارج المملكة العربية السعودية أهمها حرب فلسطين، وبطبيعة الحال زوابع

وتوابع الحرب العالمية الثانية التي زجّت به في معسكرات الاعتقال البريطانية، بعد خسارة دول المحور الحرب.

لقد جاء هذا الرجل إلى الأحساء دون مكانة ما، ولكنه حاز إعجاب الأمير والناس لتفانيه في عمله، وطيبته الفطرية التي جعلته يعمل على تحرير فتاة سورية بائسة من أسر العبودية، ويعيدها إلى وطنها لتتزوج وتنجب ثلاثة من الأبناء.

**الهوامش**

١ – بريتسكه، هربرت، الطبيب البدوي، ترجمة وتعليق أحمد إيبش، سلسلة رواد المشرق العربي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠١١م، ط١، ص ٨. وهذه هي النسحة المترجمة للعربية. وأصل الكتاب كُتب باللغة الألمانية، ونُشر في ڤيينا عام ١٩٥٦، و أطلق عليه بريتسكه عنوانا يعبر عن معاناته الهائلة: NachHauseKommst du nie . ومعناه:(لا عودة لك أبدا إلى الديار). وهذا هو الكتاب الوحيد الذي نشره بريتسكه، ولقد تُرجم إلى الإنجليزية بعنوان: BedouinDoctor وإلى الفرنسية: Médecin du desert . ومصدرنا في هذه الدراسة النسخة المترجمة للعربية.

٢ – المرجع نفسه، ص ٨.

٣ – هي واحدة من ثلاث محافظات تقع على قناة السويس، بورسعيد في الشمال عند التقاء القناة بالبحر المتوسط، والسويس في الجنوب عند التقائها بخليج السويس في البحر الأحمر، أما الإسماعيلية فتقع في منتصف المسافة بينهما. وسميت بهذا الاسم عام ١٨٦٣م بعد زيارة الخديوي إسماعيل لها.

٤ – بريتسكِه، الطبيب البدوي، ص ٨.

٥ – لم يكن الهروب سهلا لأن السلطات البريطانية في المعتقل كانت تستعين ببعض المعتقلين الألمان للوشاية بزملائهم الذين يخططون للهروب، وذلك مقابل مائة لفافة من التبغ.

٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، انظر الفصول ( ٢ : ١١ ) بالكتاب .

٧ – خان يونس مدينة فلسطينية، وهي مركز محافظة خان يونس التي تقع في الجزء الجنوبي من قطاع غزة على ساحل البحر المتوسط بالقرب من الحدود المصرية الشمالية الشرقية في شبه جزيرة سيناء.

٨ – بريتسكه، الطبيب البدوي، انظر الفصول (١٢ : ٢٠) بالكتاب .

٩ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤١ .

١٠ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٠ .

١١ – يرجع تاريخ تأسيس الخطوط الجوية العربية السعودية إلى يوم ١٥ جمادى الآخرة من عام ١٣٦٥هـ / ٢٧ مايو ١٩٤٥م، وذلك حينما قام الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت

بإهداء طائرة واحدة من طراز ( دوغلاس دي سي-٣ ) إلى الملك عبد العزيز لتبدأ خدمتها بين مدينتي جدة على الساحل الغربي والظهران على الساحل الشرقي، كانت رحلتها الدولية الأولى إلى مدينة دمشق في ١٠ يونيو ١٩٤٥. في ذلك العام افتتح أول مطار رسمي في السعودية في مدينة جدة . وخلال الأربعينيات توسعت الشركة لتخدم وجهات دولية جديدة منها القاهرة، وبيروت، ودمشق، كما تم تشغيل رحلات جوية داخل المملكة . والطائرة ( دوغلاس دي سي - ٣ / Douglas DC-3 ) هي طائرة أمريكية ذات محركين بمراوح، حققت سرعتها ومجالها ثورة في عالم النقل الجوي في الثلاثينيات والأربعينيات. انظر : الخطوط_السعودية //https://ar.wikipedia.org wiki

١٢ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٢ .

١٣ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٣ .

١٤ – تشيزمان، روبرت إرنست،في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ترجمة عبدالله المطوع و محمد الفريح، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص ٩٩-١٠٤

١٥ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٧، ٢٥٨. والصورة مصدرها : https://www.google.com/search?q=الهفوف+قديما

١٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٥ .

١٧ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٧ .

١٨ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤١.

١٩ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٧.

٢٠ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥.

٢١ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨١.

٢٢ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٦٠– ٢٦١

٢٣ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨٩– ٢٩٠

٢٤ – تركي بن عبدالله بن عطيشان الوهبي التميمي، من أهالي القصيم، كان حسن جيد الفراسة لين الجانب . كان وصوله إلى البريمي في ذي الحجة ١٣٧١هـ/ أغسطس ١٩٥٢م .

٢٥ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٣٠١

٢٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٣٠٤– ٣١٠

٢٧ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٧٥ .

٢٨ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٦ . والصورتان مصدرهما : https://www.google.com/search?q=الهفوف+قديما

٢٩ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٣ . هذا حسب التوقيت الغروبي – أو العربي – الذي يعتبر الغروب هو نهاية اليوم، وكان مقصورا على شبه الجزيرة العربية، أما التوقيت الزوالي فهو التوقيت العالمي المعروف الذي نستخدمه اليوم. ويذكر بريتسكه أن مدير مكتب الصحة الدكتور فؤاد تطوع ولقنه أول درس عملي في الهفوف :" أنت لا تعرف بعد كيف يحسب الناس الوقت هنا . إن حساباتنا تعتمد على غروب الشمس . فعندما تغرب الشمس كل ليلة عليك أن تضبط ساعتك على الساعة الثانية عشرة، وهذا يعني حوالي الساعة السابعة مساءً في الصيف والخامسة بعد الظهر في الشتاء" انظر بريتسكِه، ص ٢٤٣.

واعتبار قدوم الليل بمثابة نهاية اليوم في شبه الجزيرة العربية حسب التوقيت العربي آنذاك أمر طبيعي تماما يتفق مع الافتقار وقتها إلى مصادر الطاقة الكهربائية الكافية، إضافة إلى الأثر الديني القوي الذي يدفع الناس إلى محاولة الانسجام مع الآيات الكونية التي خلقها الله : الليل، والنهار، والشمس، والقمر. يقول الحق – سبحانه وتعالى – في كتابه الكريم :" ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ". ( النمل – ٨٦ )

٣٠ – الأمير سعود بن عبدالله بن جلوي بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، فجده الثاني مؤسس الدولة السعودية الثانية، وجده الرابع مؤسس الدولة السعودية الأولى. ولد في الرياض عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م تولى إمارة الأحساءبعد وفاة والده عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م واستمر حاكما عليها حتى عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م حيث انتقلت العاصمة الإدارية للمنطقة من الهفوف إلى مدينة الدمام، واستمر أميرا للمنطقة حتى وفاته عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م. انظر الشمري، فهد عيد، الأمير سعود بن عبدالله بن جلوي حياته وأعماله، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، الأحساء، ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م، ص ٢١– ٤٢. والصورة مصدرها :

سعود_بن_عبد_الله_بن_جلوي_آل_سعود/ https://ar.wikipedia.org/wiki

٣١ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٣.

٣٢ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٤ .

٣٣ – تشيزمان، في شبه الجزيرة العربية، ص ١٠٣

٣٤ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٨.

٣٥ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٤٨.

٣٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥١– ٢٥٢.

٣٧ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥.

٣٨ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥.

٣٩ – اريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥– ٢٥٦ .

٤٠ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥.

٤١ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥ .

٤٢ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٦.

٤٣ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٥– ٢٥٦ .

٤٤ – هاريسون، بول، العرب في ديارهم، ترجمة محمد منير الأصبحي، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٣هـ.

٤٥ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٧

٤٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٦– ٢٥٧

٤٧ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٧.

٤٨ – جريمة الزنى مثلا من الجرائم الخفيّة بطبيعتها، وشروط إثباتها شديدة التعقيد لدرجة الاستحالة، مما يتطلب اعترافا صريحا من مرتكبها لتوقيع الحد عليه.

٤٩ – والأمر الأكثر أهمية، أن هذه الحدود ليست من وضع البشر، وإنما تكليف من الخالق الرحيم الحكيم، والشيء الذي لا يدركه المؤلف بطبيعة الحال أن تطبيق الحدود في الدنيا قد يرحم الجاني من عذاب الآخرة فيما يخص جريمته، ولكن لا يدرك هذا إلا من يؤمن بالآخرة. ولو قارن بين مُعامَلة الأسير لدى المسلمين في تاريخهم الطويل وبين معاملته في الأمم الأخرى – في نفس الفترة –لأدرك أين توجد الوحشية!

٥٠ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٧٢.

٥١ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٧٣– ٢٧٤ .

٥٢ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٧٣– ٢٧٤.

٥٣ – هذا يشير إلى الشخصية الطيبة التي تحلى بها هذا الطبيب، والتي اكتسبت الاحترام من الجميع.

٥٤ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٧– ٢٥٨.

٥٥ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٨.

٥٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٥٨– ٢٦٠

٥٧ – لمعرفة تاريخ الرق انظر: عبد السلام الترمانيني،" الرق: ماضيه وحاضره "، سلسلة عالم المعرفة – عدد ٢٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩.

٥٨ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨١.

٥٩ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨٠.

٦٠ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

٦١ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨٠.

٦٢ – بتلر، غرانت سي، ملوك وجمال أمريكي في المملكة العربية السعودية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٣هـ، ص ١٦٣

٦٣ – إبراهيم بن صالح بن مهنا من بني زيد، ولد في الأحساء حوالي ١٣١٦هـ. أتقن القراءة والكتابة، اشتغل بتجارة والده حتى اتسعت تجارته وذاع صيته. اتصف بالكرم والسخاء. توفي – رحمه الله – عام ١٣٩٧هـ ودفن في الأحساء. انظر يوسف بن عبدالعزيز المهنا، تاجر الأحساء إبراهيم بن صالح المهنا، عالم الكتب، الرياض، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، ص ٤٩، ٢٢٩.

٦٤ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨١– ٢٨٣.

٦٥ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨٤.

٦٦ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٨٥.

٦٧ – هاريسون، العرب في ديارهم، ص ١٣٤

٦٨ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٦٤– ٢٦٦ .

٦٩ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص٢٦٧– ٢٦٨. في الحقيقة فإن هذا الموقف مثالي في كشف انطباع الغربيين عن الإسلام والدين بصفة عامة. فيبدو أنهم لا يرون علاقة بين

الدين والدنيا، فالصلاة – في نظرهم – عبادة روحانية للإله المعبود لضمان جنته الموعودة، وليس لها شأن بالأمور الدنيوية. إنهم يغفلون عن أن العبادات ليست غاية في حد ذاتها وإنما هي الوسيلة لربط الإنسان بخالقه، فالصلاة هي وسيلة الاتصال المباشر بين الإنسان وربه يناجيه ويستمد منه العون، لأن الكون كله يدار من السماء، وليس من الأرض كما يظن هؤلاء.

٧٠ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٧٢.

٧١ – عرف لفظ العمدة في الأحساء منذ العهد العثماني. وصدر نظام العمد في المملكة في ١٣٤٦/٦/١٩هـ وجاء في ٢١ مادة. ونشر قي جريدة أم القرى. انظر نص النظام في جريدة أم القرى عدد ١٥٨، تاريخ ١٣٤٦/٦/٢٩هـ، ص ٣.

٧٢ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٦٨– ٢٦٩.

٧٣ – بريتسكه، الطبيب البدوي، ص ٢٦٩– ٢٧٠.

٧٤ – تشيزمان، في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ص ٥٧؛ هاريسون، العرب في ديارهم، ص ١٣٥– ١٤٤